مجلة الآداب، م٢٥، ع٣، ص ص ٨٢٩- ٨٣٧، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٣م/١٤٣٤هـ)

خطاب الصمت في التواصل اللغوي: دلالاته ووظائفه

رسالة دكتوراه، نوقشت في ١ يونيو ٢٠١٣م بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض

أمل عبد الله الراشد

أستاذ مساعد في اللسانيات، بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض

الكلمات المفتاحية: الخطاب، التواصل اللغوي، الصمت.

ملخص: لقد تجاوزت الدراسات اللسانية الحديثة خطاب الكلام إلى خطابات أخرى، ومنها خطاب لم يلتفت إليه كثيرا، وهو خطاب الصمت، الذي عرف بحوثا متواترة في الدراسات اللسانية والتداولية الغربية. لهذا تحاول هذه الأطروحة تقديم دراسة منهجية لخطاب الصمت، ودلالاته في المواقف التواصلية المختلفة. وتتمثل مشكلة البحث الأساسية في أن الصمت ظاهرة حاضرة بقوة في التواصل اللغوي، غير أنها لم تأخذ المساحة التي تستحقها في الدراسات العربية، التي تصدت لبحث قضايا التواصل والتداوليات.

كان الاهتمام طوال تاريخ الدراسات اللغوية، منصباً على الكلام المنطوق، أو المكتوب. ومن هنا فإن (الصمت) والوظائف التواصلية التي يقوم بها، والأغراض والمعاني التي يحققها، لم تنل إلا القدر الضئيل من الاهتمام. ولم يشهد هذا التاريخ تحولاً ملحوظاً إلى الاهتمام بالصمت إلا في العقود الأخيرة من وقتنا الحاضر؛ إذ أسهمت عدة علوم مختلفة في تشكيل مشهد هذا التحول، مثل: اللسانيات، والتحليل النفسي، وعلوم الاتصال، وعلم النفس الاجتماعي، والأنثروبولوجيا، وغيرها. ومما يجدر قوله في هذا السياق، أن أول من تحدث عن (الصمت التواصلي Communicative Silence)، هو (بول واتسلافيكP. Watzlawick)، عالم التحليل النفسي الأمريكي، وقد كان ذلك في عام ١٩٦٧م. ويعود إلى هذا العالم وعدد من رفاقه، إرساء مبدأ رئيس في التنظير للأبعاد التواصلية للصمت؛ وهو "أن الفرد لا يمكنه إلا أن يتواصل وإن كان بالصمت". مُرتّباً على ذلك كون الصمت نمطاً من السلوك، يحقق أغراضاً تواصلية، مثلما

أن الكلام سلوك يحقق أغراضاً تواصلية. وقد عالجت اللسانيات الصمت من مدخلين، هما: المدخل الأكوستيكيacoustic : الذي يقوم التحليل فيه على استخدام المقياس الزمني chronometrical analysis حيث تقاس المادة الكلامية، لتبين الكم الزمني الذي يستغرقه النطق الكلامي، بالنسبة إلى الكم الزمني الذي تستغرقه الوقفات الصمتية أثناء التحدث. ويُلاحظ أن هذا المدخل يقدم مقاربة للصمت، تعالجه بوصفه غياباً؛ أي غياباً للنطق الكلامي؛ أي أمراً سلبياً ليس له وظائف تواصلية. وأما المدخل اللساني الآخر، فهو معالجة الصمت في تداوليات الخطاب؛ حيث نظرت المقاربة التداولية في بداياتها إلى الصمت بوصفه الموضع التفاعلي لتبادل الدور الحواري (turn- taking) أثناء المحادثة. ولم يكن في ذلك اختلاف عن مقاربة المدخل السابق. ولكن في التحولات التالية في اللسانيات التداولية، بدأ النظر إلى الأدوار التواصلية التي يقوم بها خطاب الصمت في التواصل اللغوي. وهذا الإطار النظري هو ما حاول هذا البحث استثماره والتوسع فيه.

وإذا كنا قد أشرنا إلى التحول صوب الاهتمام بخطاب الصمت، فمن المهم الإشارة أيضاً إلى أن هذا التحول في الاهتمام بخطاب الصمت، لم يمتد أثره وأبعاده إلى الدراسات العربية. ومن هنا كانت محاولة هذه الأطروحة من أجل تقديم دراسة منهجية لخطاب الصمت، ودلالاته في المواقف التواصلية المختلفة. وتتمثل مشكلة البحث الأساسية في أن الصمت ظاهرة حاضرة بقوة في التواصل اللغوي، غير أنها لم تأخذ المساحة التي تستحقها في الدراسات العربية، التي تصدت لبحث قضايا التواصل والتداوليات.

وقد اعتمدت هذه الدراسة النظر في بعض الدراسات السابقة الموطئة للقضية، والتي أسست لها. وتبين من خلال البحث، أنه لا توجد دراسة عربية عالجت الصمت من المنظور التواصلي. أما في الدراسات الغربية، فقد توافرت مجموعة من الأعمال التي عالجت الصمت من خلال هذا المنظور، ولكنها محدودة من حيث عددها، ونخص بالذكر والعرض هنا الدراسات الأربع، التي يمكن القول إنها أهم الدراسات التي أسست لموضوع خطاب الصمت، من الناحيتين النظرية والتحليلية.

(Vernon Jensen: Communicative Functions of Silence(.)Michal Ephratt: The Function of Silence)

(Tomas J. Bruneau: Communicative Silence: Forms andFunctions(.)Adam Jaworsky: The Power of Silence- Social and Pragmatic Perspectives).

إن النظر العميق في هذه الدراسات التأسيسية، هو الذي وجّه إلى بناء البحث على جملة من الفرضيات، وطرح تساؤلات منهجية، لعل أهمها، أن ظاهرة الصمت ظاهرة تواصلية. وأن هذه الظاهرة تنطوي على عدد كبير من الأنماط. وأن هناك أنواعاً من الارتباط بين الموقف اللغوي، وكل نمط من هذه الأنماط. وهذه الفرضية تطلبت من البحث محاولة الإجابة عن جملة من التساؤلات، حول ما إذا كان هناك ما يمكن أن يسمى

(خطاب الصمت)، وهل قدمت الجهود العلمية المختلفة تصورات منهجية ومسالك إجرائية لتحليل هذا الخطاب؟ وهل وُجد نوع من الارتباطات التي يمكن تعميمها بين مواقف لغوية معينة، وبروز ظاهرة الصمت في هذه المواقف؟ وهل هناك علاقة بين الصمت والرسالة اللغوية التي يحملها الكلام في أثناء التحدث؟ وهل الصمت موقف اختياري في التواصل اللغوي؟ وهل يؤثر الاختلاف الثقافي في النظر إلى سلوك الصمت وفي كيفية تأويله؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات اقتضت من البحث اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، في إطار مقاربة تواصلية تتسلح بأدوات الاستقراء والنقد. فمن جهة أولى؛ حاول البحث استقراء الأفكار ووجهات النظر والقواعد والمبادئ، التي أحاطت بالتنظير لخطاب الصمت، في الاتجاهات العلمية الحديثة. ثم اتجه نحو تصنيف كل ذلك وعرضه عرضاً يبين وجوه الاتفاق ووجوه المغايرة، فيما بين هذه الاتجاهات. وفي ثنايا هذا العرض كان دور التحليل النقدي ومراجعة الأفكار، على ما تتضمنه المواقف التواصلية التي يؤدي فيها الصمت دوراً مؤثراً.

وفيما يتعلق بخطة البحث، فإنه يمكن القول إجمالاً بأنها قامت على: مقدمة، وتمهيد كان فيه عرض للرؤيةالفلسفيةللصمتفيالجزءالأولمنه؛ حيث تناول الصمتَ عددٌ من الفلاسفة، وكان له حضور في الوصف والتحليل في طرحهم، ليس من جهة كيفية تحققه في الوجود فحسب، بل إنهم قد تناولوه أيضاً بوصفه ظاهرة بارزة الظهور والأثر في الكيان اللغوي. وفي هذا الجزء من التمهيد كان هناك أيضاً تناول للصورة الشائعة لاستعمال الصمت لفظاً وتسميةً في الاستعمال العام (أي بين عامة الناس وكيفية تصورهم للصمت)،وفي الاستعمال الأدبي (أي في الرواية والقصة والشعر وأيضاً المقال، ودوافع استعمال الصمت والاستعانة به في هذه الأنواع بصفة عامة). ثم تناول الجزء الثاني من التمهيد عرضاً موجزاً لأهم ما تقوم عليه نظرية التواصل،باعتبار أن هذا البحث يناقش معاني الصمت ووظائفه،بوصفه يتضمن حدثاً تفاعلياً له أبعاده التواصلية الواسعة. أما الفصل الأول فقد عرض لأبرز المقاربات في أبعاد الصمت، وكان في بداية هذا الفصل عرض للصمت والسكوت في الفكر التراثي؛ هل جعل هذا الفكر الصمت مساوياً للسكوت أم طرحهما طرحاً يشير إلى ثمة اختلاف بينهما؟ وكان في هذا العرض مساحة للتحليل النقدي، والاستنتاج، ومحاولة الانتباه إلى الدلائل التي تشير إلى الاختلاف بين الصمت والسكوت أو تؤكده. ثم عرض الفصل إلى مفهوم الفائدة بين الصمت والكلام بوصفها غاية التواصل، فمما يمكن ملاحظته أن الطرح النحوي التراثي قد خص الكلام بتحقق الفائدة، وتعامل مع الصمت (السكوت حسب استعمالهم) بوصفه قرينة دالة على تحقق الفائدة وحدوثها، فهل الصمت ليس إلا قرينة تؤكد الكلام وتدعمه؟ أليس له من الحضور في التواصل اللغوي ما يجعلنا نقول إنه أداء تواصلي غايته إنجاز رسالة تتحقق من خلالها الفائدة؟ لقد اصطلح النحاة على أن الكلام هو اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها. يظهر في هذا الاصطلاح أن السكوت هو دليل الفائدة. واستبعد هذا الاصطلاح أن يكون المفيد فائدة يحسن السكوت أو الكلام عليها، إشارة، أو

صمتاً. فما معنى السكوت هنا؟ وممن يكون السكوت؟ ولمن تكون الفائدة؟ هل الفائدة للمتكلم، أم للمتلقي، أم للسياق نفسه؟ وهل السكوت ممن وقعت عليه الفائدة، أم ممن كانت منه الفائدة؟ في الواقع إنه تعريف واسع للكلام، وبتأمله وتدقيق النظر فيه، لا نجد غير (اللفظ) علامة على أن المقصود هو اللغة في شكلها المنطوق، سواء أ كانت كلمة، أم جملة، أم مجموعة من الجمل. ولكن هذه العلامة، لا تمنع الذهن من أن يفهم أن المقصود هو اللغة في كل صورها، صمتاً، وإشارة، وكلاماً. لكن تعظيم قيمة الكلام آنذاك بوصفة الوسيلة الأمثل لتبليغ الرسالة، وتوصيل المعنى، هو ما جعل التركيز يكون على الكلام واللفظ، واستبعاد الصمت من هذا الأمر، لكونه لا يحمل فائدة في سياق التواصل، ولكن كان يُنظر إليه باعتباره يحمل فائدة أخلاقية بالدرجة الأولى، أما في السياق التفاعلي ففائدته إن كان لها اعتبار، فهو اعتبار هامشي بدرجة كبيرة. لم تكن صورة الصمت في التراث العربي تتجاوز في أغلبها حدود الفضيلة وما يتعلق بها أو يحيل إليها. إن المواضع التي يرد فيها الصمت بارزاً في كتب التراث القديمة، كانت تطرحه هذه الكتب في سياق الحديث عن الكلام غير المحمود، حيث إن الصمت في هذه الحال يكون الخيار الأفضل. إذن كان الصمت فضيلة في الأغلب الأعم، عندما لا تكون لدى المرء القدرة على إنتاج كلام محمود، في حين لا تكون له الفضيلة نفسها عند امتلاك هذه القدرة. ويُعد الجاحظ على سبيل المثال منتصراً للكلام بامتياز، وإن أعطى للصمت بعض الفضائل. وهذه الفضائل ما عُدت فضائل إلا انطلاقاً من كون الصمت هنا هو البديل للكلام غير المحمود. فالجاحظ يناقش كيفية استعمال الكلام، ومن هذه الكيفية اختيار الصمت في بعض المواضع. لكنه لم يطرح الصمت ليكون موضوعاً مستقلاً. وهو أيضاً يبحث في المأثور عما يدعم رؤيته بإكبار شأن الكلام، والإقلال من قيمة الصمت، إلا إذا كان وسيلة السلامة. ويمكن القول إن الصمت في التراث العربي لم يكن له وصف باعتباره لغة، وباعتباره حالاً صانعة لمعانٍ، وذات دلالات عميقة، إلا عند المتصوفة. فعندهم الصمت هو شكل اللغة الأكثر قدرة على الوصف والشرح، أما عند غيرهم فقد كان فضيلة تنبع من كون الصمت سلامة، أو شكلاً موصلاً إلى شكل الفضيلة (الوقار والهيبة). وعليه؛ كان مفهوم الصمت في التراث العربي، حسب تأسيس المتصوفة له، مختلفاً عنه عند غيرهم، فالصمت عندهم نوعان: صمت يتفق فيه الخاصة والعامة، وهو كف اللسان عن مذموم القول. أما الصمت الثاني فهو فقد القدرة على التعبير، لهيبة المعنى، أو المقام، أو حين التجلي من جهة، والاعتقاد به بوصفه اللغة الأكثر قدرة على الشرح، مما يمكن للكلام شرحه، ومما يعجز عنه. وهذا هو الصمت الذي يركز عليه المتصوفة، بوصفه ركناً من أركان التصوف. وفي هذا الجزء أيضاً من الفصل الأول طرح لتحول الصمت في الاستعمال المجازي، حيث استعمل العرب الصامت والمصمت وصفاً شارحاً للقيمة المالية والقيمة العددية، وكذلك الأمر في تمييز أنواع من الأسلحة. وفي سياق الاستعمال المجازي تناول هذا الجزء الأمراض والألوان التي وُصفت بالصامتة، أو اشتملت في دلالاتها على الصمت، وكان هذا التناول تحليلياً بهدف استنتاج العلاقة بين الصمت

والحال أو الدرجة التي يُوصف بها الشيء بالصامت، أو يُنظر إليه بوصفه دالاً على الصمت أو محيلاً إليه.

أما الجزء الثاني من الفصل الأول فقد اهتم بموضع الصمت ووجوده في العلوم الإنسانية، حيث تناولت علوم إنسانية متعددة مسألة الصمت، وكان هذا التناول مختلفاً من علم إلى علم، ومن حقل إلى آخر. كان هذا التناول متنوعاً ومختلفاً حسب الإطار الذي يكون فيه، وحاول البحث في هذا الجزء عرض الكيفية التي حددت نظرة هذه العلوم إلى الصمت وتقييمها له، وأيضاً عرض الكيفية التي تتعامل بها معه ومع ما ينتج عنه. فمنها ما نظر إليه على أنه عائق، ومنها ما نظر إليه على أنه حالة، ومنها ما نظر إليه على أنه أداة محدودة الاستعمال، فرعية وليست أساسية، ومنها ما تناوله بوصفه قضية واسعة شائكة. فالصمت حاضر في الإطار النفسي الاجتماعي، وفي الإطار الاجتماعي السياسي، وفي الإطار القانوني القضائي، وفي علم أصول التدريس، وله حضور بارز في الإطار الثقافي، ولعل أهم الظواهر التي يتحقق فيها هذا النوع من الصمت هي: صمت المرأة، وصمت الأقليات، ولعل هذا النوع يشرح كيف أن الصمت يمكنه أن يسهم بدرجة عالية في صنع النموذج المستبد. وبعد عرض موضع الصمت وقيمته في هذه العلوم وهذه الأطر، يختم البحث هذا الفصل بتحديد شكل ظاهرة الصمت في المنظور اللساني؛ حيث أخذ الصمت في المنظور اللساني مدى أوسع في النظر إليه؛ فهو لغة كما أن الكلام لغة. وقد نظرت اللسانيات في مسألة الصمت بعناية ودقة. ولا تزال الدراسات اللسانية حول موضوع الصمت محدودة، إلا أنها تعاملت معه باعتباره لغة كما أن الكلام لغة، وعليه، فإنه بطبيعة الحال سيكون هناك ما يتعلق به من: دلالات، ومعانٍ، وأنواع، ووظائف، تتحقق في إطار اللغة. يمكن القول إن كل علم من العلوم الإنسانية كان يتناول الصمت في الحدود التي تعبر عن الوظيفة المباشرة والمحدودة التي يؤديها الصمت في إطاره. أما في المنظور اللساني فقد تنبه بعض الباحثين في اللسانيات، وبعض علماء التواصل إلى أن الصمت ليس بهذا المفهوم الضيق، إنما هو أداء لغوي، ووسيلة تواصلية؛ فهو يحقق معاني ووظائف خاصة به، ويستقل بها عن الكلام. ولهذا عده من تناوله في هذا الإطار نسق لغوي قائم بذاته؛ فالصمت هو: السلوك غير اللفظي للإنسان؛ ويقدم من خلاله دلالات وإحالات على معتقداته وخلفياته وأنشطته الثقافية. وهذا التحديد للصمت من النظر إلى الثقافة على أنها تواصل والعكس أيضاً، فتأثيرات الثقافة قد تكون لفظية وأيضاً غير لفظية. وترى المناهج اللسانية أن الثقافة تؤدي دوراً رئيساً في كيفية استعمال الناس الصمت في السياقات المختلفة. وعلى الرغم من اعترافها بالدور الكبير والرئيس للثقافة في كيفية فهم السلوكيات الصامتة، إلا أنها لا تهمل المناهج النفسية في كيفية فهم الصمت، وتعتمدها في بعض جوانب التحليل، مع كونها تفهم الصمت انطلاقاً من تقييم لثنائية الكلام والصمت باعتبار أن كلاً منهما عكس الآخر.

مهدت نهاية الفصل الأول إلى موضوع الفصل الثاني، حيث اعتنى البحث في الفصل الثاني منه بمعالجة معاني الصمت وأنواعه. وهذه المعالجة اهتمت بها اللسانيات انطلاقاً من تقييمها للصمت بوصفه سلوكاً تفاعلياً، فالصمت يستعمل في الإطار التواصلي بصورة

مقصودة، أو غير مقصودة. ويحدد ذلك السياق المتحقق فيه الصمت من جهة، وصورة العلاقة ودرجتها بين المتفاعلين من جهة أخرى، والرسالة المقصودة من جهة ثالثة. والصمت يعمل في السياقات الثقافية المختلفة على مستوى التواصل الإنساني. وفي هذه السياقات يمكنه أن يملأ الفجوات التي تحدث أثناء التفاعل في العملية التواصلية، كما يمكنه في الوقت ذاته أن يزيد الفجوة عمقاً، أو يتسبب في تكوينها. يحدد هذا الأمر درجة فهم الاختلاف الثقافي القائم على خلفيات مختلفة. إن مراعاة الاختلاف الثقافي عند تفسير الصمت، له أن يزيل سوء الفهم، أو يخفف من درجته. وأكثر من ذلك يمكن لهذه المراعاة أن تعزز من قوة الجانب التواصلي، بزيادة مساحة التفاعل فيه، من خلال فهم الآخر، المتمثل في فهم ثقافته. ويحقق الصمت في الإطار التفاعلي معانٍ مختلفة الاتجاه، وهذه المعاني تبدو في الواقع متناقضة. فهو في السياق نفسه قد يحدد معنى إيجابياً، وأيضاً معنى سلبياً. لكن ما ينبغي قوله في هذا الشأن هو أن هذين المعنيين من حيث الإيجاب والسلب لا يتحققان في الوقت نفسه، إنما يرتبطان بسياق محدد، ويفصل بينهما خلفيات المتفاعلين في سياق الحدث، والثقافة التي ينتمي كل منهم إليها، وعليه يُحدد إلى أي نوع منهما يُصنف الصمت من حيث الإيجاب والسلب. إن أهم ما ينبغي التأكيد عليه في هذا الشأن، هو السمة الثنائية للمعنى في الصمت، وأيضاً للوظيفة التي يحققها؛ فالصمت بالشكل نفسه يحقق المتناقضات، في حين أن الكلام في الأغلب ليست لديه هذه القدرة. ولا يُرد هذا إلى غموض الصمت –كما هو شائع- بل إن منبع ذلك هو القوة المضاعفة الكامنة في خطاب الصمت.

يأتي تصنيف أنواع الصمت في الجزء الثاني من الفصل الثاني، فبالنظر في المعاني التي يحققها الصمت المنجز في السياقات المختلفة، نجد أن هذه المعاني حسب المنظور اللساني ستتشكل ضمن ثلاثة أنواع رئيسة للصمت، هي: الصمت اللساني النفسي، والصمت التفاعلي، والصمت الاجتماعي الثقافي.

وأما الفصل الثالث فقد خُصِص لعرض وظائف الصمت في ضوء أهم المفهومات التواصلية الحديثة، وبالانطلاق من أهم الدراسات التي اعتنت بجانب الوظائف. حيث إن الصمت لا يحيل إلى معان ودلالات ويشرحها فحسب؛ إنما هو أيضاً يؤدي وظيفة يسهم في تحديدها السياق الذي يحدث ويتكون فيه. فالصمت أداة مهمة في عملية التواصل له آلياته واختلاف اتجاهاته وله خطابه الكامل الذي يمكن توظيفه في التواصل، من حيث تنفيذه في الكلام من جهة، ومن حيث قيامه بذاته من جهة أخرى، وفي الحالين يقوم الصمت بوظيفة لا تتحقق، أو يمكن القول، لا تكتمل إلا به. ويمكن للاستعمال الواعي للصمت أن ينتج نتائج مهمة في التواصل، تماماً كما هو الأمر مع الكلام؛ لذلك فهو بالغ الأهمية والخطورة. ويمتلك الصمت من القوة ما لا يجعله مجرد (فراغ)، ويظهر ذلك في الحوارات، وفي الخطابات بأنواعها، وفي المفاوضات، ويمتد هذا الظهور ليشمل كل سياقات العلاقات الإنسانية المختلفة. انطلق هذا الفصل من تساؤلات أولى رئيسة لتبين موقع الصمت والكلام في ما يمكن أن تحققه اللغة من وظائف.وبعض

الأسئلة التي يطرحها هذا الفصل هي: هل يمكن أن تكون عملية التواصل كاملة باللغة في صورتها المنطوقة أو المكتوبة وحدها، دون أن يكون هناك اعتراف بمساحات الصمت، التي تتداخل مع الكلام تداخلاً يختلف في مداه حسب السياق الذي تحقق فيه هذا الصمت؟! ثم إذا كان هناك اعتراف بمساحات الصمت هذه فهل يمكن القول إن قدرة المرء التفاعلية تكمن في كيفية توظيف الصمت في الحوار؛ أي في الكلام؟! ومن ثم الوصول إلى أن الصمت هو أحد مفاتيح التواصل المهمة؟! والاقتناع بأن امتلاك المرء لهذه القدرة أم عدمه لا ينفي حقيقة أن الصمت موجود في التواصل ومؤثر فيه وفي توجيهه؛ حيث إن الصمت يحدث في الكلام بدون اختيار من المرء سواء كان منتجاً أم متلقياً، وهو أيضاً في هذه الحال مؤثر وصانع لوظيفة تواصلية، وليس بالضرورة أن يكون هذا الصمت مقصوداً ؟! ولمناقشة هذا التساؤلات كان لا بد من استعراض وظائف اللغة في الكلام، وفي الصمت، وذلك بهدف استنتاج موقع وظائف الصمت، مقابل وظائف الكلام في اللغة.

يمكن القول إن أهم نموذج لوظائف اللغة في التواصل هو النموذج الذي أسسه رومان جاكوبسون، فدراسة جاكوبسون اللسانية لوظائف اللغة (الكلام)، تنطلق من كون اللغة وسيلة التواصل، وعليه؛ فإنها تبحث في الدور الأنثروبولوجي الذي تؤديه اللغة، من خلال تحقق هذه الوظائف في الممارسة الاجتماعية؛ حيث إن هذه الوظائف على اختلافها لا تتحقق إلا من خلال العناصر الرئيسة للمجتمع، ولا يمكن فهمها، وتحديد اتجاهها إلا من خلال النظر في سياقها المحدود والواسع، الذي جمع العناصر الأخرى، ولهذه الاعتبار فإن البحث قد اعتمد نموذج جاكوبسون من ضمن النماذج اللسانية التي بحثت في وظائف اللغة في شكلها الملفوظ نظرياً وتطبيقياً. أما الجزء الثاني في بحث وظائف الصمت في اللغة بين الصمت والكلام فقد اختص بالوظائف التي تنجزها اللغة في الصمت، وقد اعتمد هذا الجزء النموذج الرئيس الذي تنطلق منه أي دراسة في ظائف الصمت وهو نموذج جينسن، و يُعد جينسن(Jensen) أول من بحث في وظائف الصمت، وذلك في بحثه الرائد (الوظائف التواصلية للصمت). وقد انطلق في هذا البحث من فكرة رئيسة هي أننا لسنا بحاجة للصمت بوصفه معنى للغياب، بل نحن في حاجة للتعامل مع الصمت بوصفه عاملاً تواصلياً مهماً، ووسيلة ضرورية للتواصل الفعال.حيث يقول: إن ثقافتنا الثرثارة تحتاج إلى مزيد من الإدراك لقيمة التواصل بالصمت، وإلى مزيد من الوعي بمعرفة وظائفه التي يؤديها في التواصل. أما النموذج الثاني فكان نموذج ميشيل إفراتM. Ephratt حيث بحث في تركيز على الصمت البلاغي دور الصمت في نموذج جاكوبسون الكلاسيكي للوظائف الاتصالية للغة، التي أصبحت مؤسسة في اللسانيات في عدة مجالات أخرى. وقد اعتمد أيضاً نموذج جينسن في دراسة وظائف الصمت بوصفه النموذج الوحيد الذي درس هذه الوظائف وأسس لها. وقد جاء نموذج جينسن دقيقاً موجزاً مؤسساً، أما نموذج إفرات فقد كان متنوعاً في الطرح، متوسعاً، ما بين نموذج جاكوبسون ونموذج جينسن، وأيضاً نموذجه الخاص الذي أكمل به نموذج جينسن، وربما كان هذا ما أوقع بحثه في بعض

الاضطراب، إلا أنه يمكن القول إن مثل هذا الاضطراب مفهوم ومقبول في دراسات جديدة تحاول اكتشاف زوايالم يُنتبه إليها ولم يمر بها البحث اللساني، ولم يتوقف لينظر إلى ما يمكن أن يكون فيها وما يمكن أن تمنحه من معرفة.

وبطبيعة الحال كانت بعد هذه الفصول الثلاثة خاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث. حيث تناول قضية الصمت، من حيث أبعاده اللغوية والفلسفية، وبوصفه خطاباً رئيساً يرسم أبعاد التواصل اللغوي. وبالانطلاق من فرضية أن اللغة هي الصمت والكلام معاً، وأن الصمت ليس مجرد أداة إضافية تصحب الكلام، وخلال البحث تبين أن الصمت أقوى وأبعد أثراً مما قامت عليه فرضية البحث. ومن أهم النتائج التي وصل إليها البحث، أن الصمت ليس مجرد حالة، وفي مستوى أكبر لا يتوقف عند كونه موقفاً، بل إن للصمت خطاباً واضحاً، ينجز من خلاله وظائفه المتعددة في التواصل، ويحقق من المعاني الوفيرة ما يحققه الكلام في الأداء اللغوي. كما أن الصمت ظاهرة لغوية مستقلة، تسير في طريق مواز لظاهرة الكلام، فالصمت والكلام هما أداتا اللغة، الظاهرة الإنسانية الكبرى. وعليه، فإن التعامل مع اللغة على أنها الكلام، والعكس أيضاً، فيه إقصاء كامل للصمت، وعدم اعتراف به بوصفه خطاباً، وبدوره اللغوي الرئيس الذي يؤديه في التفاعل بين المشاركين، متمماً بذلك عملية التواصل مع الكلام. وباعتماد الدراسات القليلة التي كان الصمت في اللغة موضوعها الرئيس، تبين أن الصمت لا يؤدي وظيفة رئيسة فحسب، بل إنه يؤدي الوظيفة الأهم، وأنه الأصل في اللغة، وهو سابق للكلام، ولا يبدأ الكلام مهمته إلا بعد أن يهيئ له الصمت الطريق، وكذلك يستمر دور الصمت في إنجاح مهمة الكلام في أثناء تنفيذها، ليؤكد معنى الكلام، أو يحوله، أو ينفيه. فالصمت بالغ الضرورة للكلام، في حين أن الصمت يمكنه في بعض الحالات ممارسة وظيفته، والنجاح في بلوغ غايته من غير وجود الكلام. ولذلك رأت الدراسات الرئيسة في تناول ظاهرة الصمت، بأنها ظاهرة مستقلة، لها وجودها الظاهر، وأسسها الكاملة، في حين أن الكلام بوصفه ظاهرة لغوية، لا يتحقق مستقلاً عن ظهور الصمت فيه. وحسب رؤية (بيكاردPicard) للصمت؛ فإن الكلام قد جاء من الصمت. ومن خلال هذا المبدأ؛ يشرح الصمت بكونه يمكنه القيام بذاته، أما الكلام فلا يمكنه ذلك؛ حيث إن الصمت ظاهرة مستقلة، فهو ليس مجرد توقف للكلام، وليس يعني انعدام وجود اللغة أو نفيها، بل إنه شكل من أشكال اللغة. ويجدر القول هنا إن الكلام في حاجة إلى الصمت لإتمام رسالته في سياق التواصل، أما الصمت فهو قادر على إتمام العملية التواصلية من غير حاجة إلى الكلام. فالصمت والكلام/ اللغة يتساويان: الكلام/ اللغة تمتلك المعرفة بالصمت، والصمت يمتلك المعرفة بالكلام/ اللغة.

لا بد من القول إن فصول البحث الثلاثة على اختلاف مباحثها، قد نظرت إلى الصمت على أنه سياسة ومنهج، كما هو الحال تماماً مع الكلام. ومن عدم الدقة النظر إلى الصمت والتعامل معه على أنه ضعف في كل أحواله. فيما يتعلق بالضعف فهو ليس إلا حالاً يؤدي إلى اشتغال الصمت، ولكنه أيضاً في الوقت نفسه يمكنه أن يتسبب في اشتغال الكلام؛ فليس الكلام قوة وليس

الصمت ضعفاً؛ بل إن الصمت والكلام هما أداتا اللغة التي بهما تشرح القوة والضعف وأحوالاً متعددة كثيرة أخرى. وعليه، فإنه بطبيعة الحال سيكون النظر إلى الصمت على أنه فراغ، أو (لا شيء)، هو نظر قاصر، ووصف لم ينتج عن تناول دقيق، ومتأنٍ للصمت في أي جانب من جوانبه.